شعريّة الفضاء ودلالاتها في رواية "ذاكرة الجسد" لأحلام مستغانمي

د. فاطمة برجكاني/جامعة الخوارزمي، طهران، إيران

المقدّمة

كلمة الفضاء تعادل Espace الفرنسيّة و Space الانكليزيّة، وهما مأخوذتان من اللاتينيّة Spatium بمعنى المسافة والامتداد اللامحدود، كما تعنيان الفسحة الفاصلة بالمفهوم المكاني والزماني للكلمة وفي اللغة العربيّة تُترجم هذه الكلمة إلى كلمة فضاء أو فراغ أو مجال أو حيّز[1].

يدرس هذا البحث شعريّة الفضاء الروائي في رواية "ذاكرة الجسد" للكاتبة أحلام مستغانمي كنموذج من الرواية الجزائريّة، وبشكل عامّ الرواية العربيّة. والفضاء هنا يُتّخذ من منظور جديد ومفهوم حديث قد يحتوي أماكن متعدّدة بداخله.

تُعتبر رواية "ذاكرة الجسد" من الروايات الأكثر مبيعًا في العالم العربي، منذ صدورها في الطبعة الأولى سنة 1993 في بيروت، كما أنّها تُرجمت إلى لغات عديدة منها اللغة الفارسيّة، وحصلت على جوائز عدّة، وأصبحت موضوعًا لأبحاث ورسالات وأطروحات جامعيّة في البلدان المختلفة من نواح متعدّدة.

إنّ أسلوب الكاتبة المليء بالخيال جعل الروايةَ تمتلىء بالشعريّة في أبعادها المختلفة منها شعريّة العنوان، واللغة، والوصف، وصولاً إلى شعريّة الفضاء الروائي الذي هو من أهمّ عناصر الرواية إذ إنّ إيجاد النصّ يتعلّق بإيجاده، ما يجعل الكلام الصادر عن الكاتبة يوحي بدلالات تأويليّة عدّة. ومن هنا يأتي هذا البحث عن رواية شغلت بال القرّاء الناطقين بلغات مختلفة منها الفارسيّة، إلى جانب النقّاد في أنحاء العالم، ليدرس مدى الشعريّة السائدة على الفضاء في الرواية، ودلالاتها. ومن أبرز النقاط في هذه الدراسة، البحث عن علاقة هذا

الفضاء بالمكان، وبالشخصيّات، إضافة إلى شعريّة وصف الفضاء ودلالات الفضاء الشعري فيها.

أوّلاً: علاقة الفضاء بوصف بالمكان؛ علاقة متحوّلة

المكانالذي يعادل كلمة Lieuلفرنسيّة وPlaceلانكليزيّة، هو من مادّة "مكن" وجمعه "أمكنة"، يعني الموضع، كما أنّه يعني المكانة والمنزلة، مثلا إذا قيل " هو من العلم بمكان"[2].كما أنّه جاء في "المعجم المسرحي" أنّ المكان هو الموضع أو الحيّز أو وجود مادّي يمكن إدراكه بالحواسّ، وبذلك يتميّز عن الفضاء، وهو الفراغ الذي يحيط بالعناصرالمادّيّة[3].

إنّ مفهوم المكان عنصر سرديّ، ولا يمكنه أن يتجزّأ من باقي عناصر السرد كالشخصيّة والحدث. ولذلك يمكن اعتبار المكان عنصر غير مستقّل في النصّ الروائي. وعادة لا يصف الراوي المكان إلاّ لأنّه يريد أن يصل إلى ما هو أبعد من المكان، أي الشخصيّات أو الأحداث.ا ما نكتشف نوعيّة الشخصيّات وعقليّتها وعواطفها في الرواية من خلال الوصف المكاني. كما أنّ مغامرات البطل تحدث في المكان.

ما يُلاَحظ في بعض الدراسات النقديّة أنّها لا تُميّز بين المكان، والفضاء الروائي الذي يسّمى أيضًا الفضاء الجغرافي، إلاّ أنّبعض النقاد يعتقدون بالتمايز بينهما، ويرون شموليّة للفضاء لا توجد في المكان[4]. فمن هذا المنظر تكون علاقة الفضاء بالمكان علاقة الكّل بالجزء. والفضاء الذي يحتوي المكان في جوفه، يبقى أوسع وأشمل منه ليحوي الزمان والجّو السائد على الأحداث وبالنتيجة على الرواية. أي يمكن للفضاء أن يكون مجموعة أماكن، فكّل رواية عليها أن تنتمي إلى فضاء خاصّبها. والجدير بالذكر أنّالقسم الثالث من النّقاد لا يرى فرقًا كبيرًا بين ما يُذكر من التعاريف من قِبل الفَريقَين المذكورين، إذا ما وسّعنا دلالة كلمة مكان لتدلّ على الأمكنة، ولا تقتصر على مكان واحد من أجزاء الرواية[5].

أما الوصف، فله دور هام في عمل سرديّ كالرواية، حيث أنّ بعض النّقاد يعتبرون دوره أوليًّا، ويرونه أساسًا يتوقّف السرد عليه ولا يمكن اتّصاف الرواية بالأدبيّة من دونه[6]. كما يرى جيرار جينيت بأنّ الوصف أكثر لزومًا للنصّ من السرد، ذلك لأنّه أسهل علينا أن نصف دون أن نحكي، من أن نحكي دون أن نَصف[7] قيل أيضًا إنّه لم تُكتب قصّة أو رواية في آداب الأمم إلاّ وكان الوصف أساسًا من أسسها، لكنّ أهمّيّة هذا الوصف لا تتحقّق إلاّ إذا كان في خدمة مضمون القصّة، ذلك أنّ الأديب الناجح لا يلجأ إلى الوصف لمجرد أن يريد أن يصف الأشياء[8]

كما أنّ الوصف يشمل وصف المكان والشخصيّات والأشياء والمواقف، وما يهمّنا في هذا البحث هو الوصف المكاني، وله بعد تخييلّي وغير فيزيائّي في الرواية، وهذا ما يزيد من شعريّة الوصف من جهة والمكان من جهة أخرى. إذ كلّما زاد البعد التخييلّي للمكان، كثرت الشعريّة في وصفه. هذا ما يستوقفنا في رواية "ذاكرة الجسد" الذي ليس المكان فيها ثابتة حيّز جغرافي بحت، بل حيّز إنساني بامتياز، حيث إنّ الكاتبة تهدف من خلال إشارات مكانيّة الوصول إلى البعد الإنساني الكامن في المكان، وما يفعله الإنسان فيه، أو ما يحدث له، وما يعاني منه، أو ما يتمتّع به. وهذا ما يعزّز علاقة المكان بالفضاء في رواية مستغانمي.

إنّ لوصف المكان في رواية "ذاكرة الجسد" علاقة بنفسيّة الشخصيّة، حيث تهدف الكاتبة من خلال الوصف المكاني إظهار نظرة الشخصيَات بخاصّة بطلقصّتهابذلك المكان. كما أنّه في رأي أحد النّقاد "تنتهج الكاتبة لوصف المكان في مجمل الأعمال الروائيّة- مبدأ الوصف التعبيري الذي يصوّر الأشياء من خلال الإحساس بها"[9] ومن هنا نرى أنّه عندما يصل البطل إلى مدينته قسنطينة بعد سنين طويلة وبعد خيبة حبّ، يشعر بعذاب حضّرته له هذه المدينة، وتصف الكاتبة قسنطينة من خلال ما يشعر به البطل من إحساسه تجاهها:

" مدينة تواطأت معنا في التطّرف والجنون. مدينة "ساديّة" تتلذّذ بتعذيب أولادها. حبلت بنا دون جهد.ووضعتنا كما تضع سلحفاة بحريّة أولادها عند شاطىء وتمضي دون اكتراث، لتسلّمهم لرحمة الأمواج والطيور البحريّة.."[10].

نرى إذن أنّ ما يجري في "ذاكرة الجسد"مرتبط بقضيّة حبّ ارتباطًا وثيقًا، كالعديد من الروايات، إذ إنّه لا تكاد تخلو رواية من قصّة حبّ، كما قيل[11]

وفي مكان آخر يسخر من مدينته التي سبق وأحبّها كثيرًا:

"كان ترقّب حسّان و زوجته للعرس، واستعداداتهما الدائمة له، للقاء كلّ الذين سيحضرونه من شخصيّات وعائلات كبيرة، يجعلني أستمع لهما أحيانًا، وكأنّني أستمع إلى أطفال يتحدّثون عن "سيرك" ، سيحلّ بمدينة لم يزرها سيرك ولا مهرّجون من قبل.

وكنت لذلك أشفق عليهما.. وأعذرهما.

لقد كانت قسنطينة في النهاية، مدينة لا يحدث فيها شيء ما عدا الأعراس. فتركتهما لفرحتهما ينتظران "السيرك عمّار" واحتفظت لنفسي بخيبتي"[12].

ومن خلال سخريّتها من سكّان المدينة، تسخر من المدينة نفسها، وتُقيم علاقة بين المدينة وسكّانها.

كما أنّ المدينة والوطن يصبحان مكانًا مليئًا بالتناقضات:

"ها هي مدينة تستدرجك إلى الخطيئة.ثمّ تردعك بالقوّة نفسها التي تستدرجك بها... عليك أن تكتفي بالتفرّج على عادات النفاق المتوارثة هنا منذ أجيال، وتتحاشى النظر إلى هذه المدينة في عينيها حتّى لا تُربكها... وترتبك!"[13].

هذا التناقض الذي ينسبهُ البطل لقسنطينة، لقد اجتاح هذه المدينة، بالرغم من أنّها كانت في نظره تمثّل وحدة من خلال جسورها المعلّقة التي اعتاد أن يرسمها في مهجره لتكون

الجسور كلّها رمزًا موحّدًا لمدينته. وفي الوقت الذي كنّا نعتقد أنّ البطل يتفانى في حبّ وطنه، نرى فيما بعد مدى نفوره منها، بسبب الخيبة والفشل اللذَين أصيب بهما في الوطن.

من خلال هذه النماذج نرى أنّ الكاتبة تعطي وسعة وشمولاً للمكان وتوجد علاقة بين المكان وبين الفضاء المسيطر عليه من خلال الحالة النفسيّة للشخصيّات لتخلق شعريّة مبدعة عن طريق كلام الشخصيّات وحواراتها.

إضافة إلى ذلك، إنّ علاقة الكاتبة بالفضاء علاقة متحوّلة بتحوّل الحالات الفكريّة والنفسيّة لشخصيّات الرواية، إذ إنّ مدى جمال المدينة أو بشاعتها يرتبط بمدى فرح الشخصية أو حزنها. كما رأينا من خلال الأمثلة أنّ مدينة قسنطينة التي أصبحت مدينة نفاق وكره وسخريّة وتناقض كانت في يوم من الأيّام مدينة الصمود والحبّ والوحدة. والبطل الذي أصبح يسخر من المدينة ويكرهها، سبق وافتخَر بها بأنّها عريقة:

"تمتدّ أمامي غابات الغار والبلّوط، وتزحف نحوي قسنطينة ملتحفة ملاءتها القديمة،... إنّ كلّ الطرق في هذه المدينة العربيّة العريقة، تؤدّي إلى صمود..."

ثانياً: علاقة الفضاء بالشخصيّات

إنّ أبرز ما يقال في علاقة الفضاء بالشخصيّات في الرواية، هو أنّ الشخصيّات التي تعيش في الرواية، وتقوم بأفعال مختلفة، تتفاعل مع فضاءاتها الخاصّة والعامّة، وتُقيم معها علاقات مختلفة، سواء أكانت الفضاءات عبارةعن أمكنة مغلقة حميميّة كالمنازل، أم عامّة كالمدن والبلدان، أم كانت أشياء طبيعيّة أو إنسانيّة[15].

لقد أقيمت هذه العلاقة بين الفضاء والشخصيّات في رواية "ذاكرة الجسد" بطريقة تزيد من شعريّة الفضاء، إذ لا يوجد فضاء مستقلّ عن الشخصيّة وتفاعلها مع ذلك الفضاء التي تعيش فيه في حقيقته أو حلمه.وما يُصدَر من الكلام عن الفضاء، ليس إلاّ ما يجري

على لسان الشخصيّة ظاهرًا أم مقدَّرا.كما أنّ الفضاء يرتبط بما تعيشه الشخصيّة في داخله من مشاعر تجاه الفضاء.

يمكن أن نحدّد في هذا المجال مستويَين عامّين من العلاقة بين الفضاءوالشخصيّات، هما علاقة الحبّ واللاحبّفهذه العلاقة تتحوّل بتحوّل نفسيّة الشخصيّة تجاه الفضاء، إذ إنّ "خالد" الذي يعيش في حبّ مع فضاء وطنه البعيد عنه، لسنين عدّة قضاها في مهجره، بدأ يعيش في اللاحبّ أو حتّى كره ونفور بالنسبة إلى الفضاء نفسه، بعد أن يشعر أنّ هذا الوطن هو الذي سرق منه حبيبته.

يلخّص البطل هذه العلاقة في كلامه الصادر في بدايات الرواية، بقوله:

"سأحدّثكِ عن تلك المدينة التي كانت طرفًا في حبّنا، والتي أصبحت بعد ذلك سببًا في فراقنا، وانتهى فيها مشهد خرابنا الجميل"(16)

وبهذا القول يُخبرنا بداية عمّا سيتحوّل عن تلك المدينة وفضائها في أعماق قلب الشخصيّة من الحبّ إلى اللاحبّ.

إنّ فضاء المدينة- الوطن هو أَحبُّ شيء إلى "خالد" وحبّها يبقى عميقًا في داخله، إن كان في زمن يعيش في تلك المدينة أم يهجرها:

" رحتُ يومها أتأمّل تلك الجدران على غير عادتي، وأنا أفكّر في كلّ ما يمكن أن أعلّق عليها من لوحات بعد اليوم. كلّ وجوه من أُحبّ.. كلّ الأزقّة التي أحبّ.. كلّ ما تركته خلفي هناك"(17).

كما أنّ الكاتبة تُقيم علاقة بين فضاء المدينة- الوطن، من خلال جسورها وبين الشخصيّة التي تتحدّث بالشعريّة عن جسور مدينة قسنطينة:

"أكان ذلك الجسر أحبّ شيء إلّي لاحقًا، لأقف بتلقائيّة لأرسمه وكأنّني وقفت لأجتازه كالعادة؟ أم تراه أسهل شيء للرسم فقط؟

أدري أنّني رسمته مّرات ومّرات بعد ذلك، وكأنّني أرسمه كّل مّرة لأّول مّرة. وكأنّه أحبّ شيء لديّ كّل مّرة"[18]

ما يزيد من شعريّة هذا المقطع هو أنّ الشخصيّة تعبّر عن حبّها لجسر "قنطرة الحبال" الذي لم يحدث بعد، وما سيحدث لاحقًا، وكأنّها تتنبّأ حبَّها المستقبلي لهذا الجسر، ويسرع لرسمه.

أّما إذا أردنا أن نعود لنتحدّث عن التحّول الذي عاشته الشخصيّة بالنسبة إلى فضاء الوطن، فنرى في نهايات الرواية عندما يعود "خالد" إلى وطنه، أنّ فضاء الوطن تحّول بالنسبة إليه من فضاء للحبّ إلى فضاء اللاحبّ، وكأنّ اختلالاً ما حدث في نفسيّة الشخصية فيما يتعلّق بعلاقتها بالفضاء:

"فهل هذا هو الوطن؟

قسنطينة..

كيف أنتِ يا أميمة.. واشك؟

أشرعي بابك واحضنيني.. موجعة تلك الغربة.. موجعة هذه العودة..

بارٌد مطارِك الذي لم أعد أذكره. بارٌد ليلك الجبلّي الذي لم يعد يذكرني"[19]

إنّ مشاعر الشخصيّة تجاه الفضاء، وتحّولها بالنسبة إلى الفضاء، لا ينحصر بالوطن، بل بالمهجر أيضًا.المهجر الذي بالرغم من إبعاده عن وطنه، إلاّ أنّه فضاء واجه "خالد" قدَره الجميل الذي جمعه بحبيبته، ولذلك يصبح فضاءً للحبّ:

" لم يكن القدر فيه هو الطرف الثاني، كان منذ البدء الطرف الأّول. أليس هو الذي أتى بنا من مدن أخرى، من زمن آخر وذاكرة أخرى، ليجمعنا في قاعة بباريس، في حفل افتتاح معرض للرسم؟"[20]

إنّ علاقة الشخصيةّ بفضاء المهجر، كما بفضاء الوطن، ليس علاقة حبّ فحسب، بل يتعدّى ذلك لتصبح علاقة حزن وقهر أيضًا:

"وها أنا ذا اليوم، في غربة أخرى وبحزن وقهر آخر.. ولكن بربع قرن إضافّي، كان لي فيه كثير من الخيبات والهزائم الذاتيّة. وقليل من الانتصارات الاستثنائيّة...

ها أنا نّبي خارج وطنه كالعادة.. وكيف لا ولا كرامة لنّبي في وطنه؟"[21].

وفي شعريّة عالية، تشرح الكاتبة سبب تفضيل فضاء المهجر على فضاء الوطن من قِبل شخصيّة البطل، وتحاول أن تبرّر ذلك عن طريق العلاقة التي تُقام بين الفضاء والفكرة التي يُلقيها الفضاء إلى الشخصيّة:

"تعيش في بلد يحترم موهبتك ويرفض جروحك. وتنتمي لوطن، يحترم جراحك ويرفضك أنت. فأيّهما تختار.. وأنت الرجل والجرح في آن واحد.. وأنت الذاكرة المعطوبة التي ليس هذا الجسد المعطوب سوى واجهة لها؟"[22]

ثالثًا: دلالات الفضاء الشعريّة في رواية مستغانمي

إذا قمنا بعمليّة رصد الإشارات الفضائيّة في رواية "ذاكرة الجسد"، نكتشف أنّ الكاتبة مصّرة على جمع فضاءات متعدّدة ومختلفة تمتدّ من الشرق إلى الغرب. وإذا تحدّثت مطوّلاً عن الفضاءات والأماكن في الشرق الوطن، تعود وتتحدّث أيضًا عن الفضاءات التي تقع فيها شخصيّات الرواية في الغرب أو حتّى عن الفضاءات التي لا تقع فيها الشخصيّات بل تمّر الكاتبة عنها مرورًا سريعًا، وهكذا تقوم بتوسيع دائرة الإشارات والدلالات الفضائيّة.

تظهر الدلالات الفضائيّة أحيانًا في ذكر مباشر لأسماء أماكن متعدّدة، مثل قسنطينة والجزائر وتونس ومصر وفرنسا وأثينا وروما ويوغسلافيا والصقليّة واليابان وفلسطين وبيروت وأوروبا والشارع والزقاق والغرفة والقاعة والطريق. كما أنّها تبرز أحيانًا من خلال كلمات وأشياء أخرى تعطي دلالة فضائيّة ومكانيّة، مثل الحرب والثورة والغربة والمنفى والجسر والقنطرة

والجبال والجبهة والنافذة والجدران. وأحيانًا عن طريق عبارات متفّرقة تشير إلى إيجاد فضاء معيّن في ذهن القارىء، مثل الإشارة إلى الجزائريينأوالدول الاشتراكيّة والأساطير اليونانيّة وإلهة إغريقيّة والرومان والبيزنطيّين والفاطميّين والحفصيّين والعثمانيّين وغيرها.

أمّا بالنسبة إلى الدلالات العامّة التي يمكننا استخراجها من خلال كلمات وعبارات وجمل وتعابير متعدّدة، والرموز التي ترمز إليها الكاتبة، فيمكن تلخيصها في عدّة محاور، هي: الوطن واللاوطن والمدينة أو المدن والمدينة- المرأة.

1- الوطن واللاوطن

قد لا يكون إفراطًا إذا قلنا إنّ كلّ ما يرمز إلى الفضاء في رواية "ذاكرة الجسد" لا يخرج من نطاق الوطن واللاوطن. يظهر الوطن من خلال إشارات متعدّدة تدلّ على الفضاء الذي يشكّل عادة حنينًا للوطن.

إنّ الوطن يبرز في تكرار كلمات متعدّدة أبرزها إضافة إلى كلمة الوطن، قسنطينة، الجسور والقناطر، الجبهة. هذه الكلماتالمتكرّرة تشكّل حنينًا ونوستالجيا تُلقيهما الكاتبة إلى القارىء على لسان بطل الرواية في معظم الأحوال، وعلى لسان سائر الشخصيّات أحيانًا أخرىوهكذا يبقى الوطن باقيًا في ذاكرة البطل:

" لم أكن أعرف أنّ للذاكرة عطرًا أيضًا.. عطر الوطن"[23].

أمّا كلمة "الوطن" فلها دلالة كبيرة في الرواية، حيث إنّها تحّل محّل كلمات أخرى أحيانًا، مثلما تستعير الكاتبة كلمة الوطن لتدلّ على "الناس" على لسان "خالد":

"الوطن كلّه ذاهب للصلاة"[24].

أو عندما يقول:

"تراني أنا الذي أدخل الشيخوخة.. أم ترى الوطن بأكمله هو الذي يدخل اليوم سنّ اليأس الجماعي"[25].

إنّ الوطن في الرواية ليس فقط عبارة عن موضوع لنوستالجيا الشخصيّات أو حبّها له، بل يقع أحيانًا موقع النقمة من قِبل الشخصيّات ويواجه انتقاداتها. كقول "خالد":

" اليوم لا شيء يستحقّ كلّ تلك الأناقة واللياقة، الوطن نفسه أصبح لا يخجل أن يبدو أمامنا في وضع غير لائق!"(26)

إلاّ أنّ الوطن بالرغم من كلّ التحوّلات والتغيّرات التي طرأت له من حنين إلى نقمة، بقي هو الأمّ الذي تغمر ابنها بحنانها:

"لم أعد أذكر الآن بالتحديد، في أيّة لحظة بالذات أخذ الوطن ملامح الأمومة، وأعطاني ما لم أتوقّعه من الحنان الغامض ، والانتماء المتطرّف له"(27).

لقسنطينة مكانة كبيرة في الرواية، وهذا يبدو منذ البداية ومن صفحة الإهداء التي تهدي روايتها إلى "ابن قسنطينة الذي أقسم بعد استقلال الجزائر ألاّ يكتب بلغة ليست لغته"(28). كما أنّ أحيانًا يرد اسم قسنطينة ستّ مرات في صفحة واحدة.(29) وكثيرًا ما تحضر هذه المدينة في صفحات الرواية من خلال جسورها وبيوتها وتضاريسها وكهوفها ومغاراتها وقهوتها وعاداتها وذاكرتها، حيث تحاول الكاتبة تحضير الفضاء الشعري القسنطيني لدى القارىء، كمخاطبة البطل حبيبته بشكل ضمّني:

"يا قسنطينيّة الأثواب. يا قسنطينيّة الحبّ.. والأفراح والأحزان والأحباب. أجيبي أين تكونين الآن؟"(30).

أمّا اللاوطن فله مصادقَين لدى الكاتبة، الأوّل هو المهجر، والثاني هو الوطن نفسه التي تحوّل إلى اللاوطن.

يأخذ المهجرصفة المنفى على لسان "خالد" الذي يقول:

"...ليس من السهل على شخص سكنَته الغربة أن يجمع أشياءه هكذا ويعود.. في الحقيقة المنفى عادة سيّئة يتّخذها الإنسان"وقد أصبحت لي أكثر من عادة سيّئة هنا.."(31).

إنّ مبدأ الغربة موجود في اللاوطن- المهجر، حيث إنّ البطل "خالد" يتزّج هذه الغربة حسب تعبير[32] ويَرُد على لسانه:

"ثماني مفكّرات لثماني سنوات، لم يكن فيها ما يستحقّ الدهشة. جميعها صفحة واحدة لمفكّرة واحدة لا تاريخلها سوى الغربة كنت أحاول أن أختصرها بعمليّة حسابيّة كاذبة، تتحّول فيها السنوات إلى ثماني مفكّرات لا غير..."[33].

تعود الغربة وتلاقي البطل في وطنه أيضًا بعد عودته إليه. كما أنّ الخوف من الشعور بالغربة في الوطن يرافق الشخصيّات طوال صفحات الرواية، حيث يقول صديق طفولة "خالد":

"ما يخيفني ليس ألاّ يعرفني الناس هناك، بل ألاّ أعرفَ أنا تلك المدينة.. وتلك الأزقّة.. وذلك البيت الذي لم يعد بيتي منذ عشرات السنين.."[34].

وإنّ الحبّ الذي يكمن قلب البطل بالنسبة إلى وطنه، يتحّول إلى نقمة منه، وهذا ما يجعل الوطَن اللاوطَن. فقسنطينة تصبح مدينة نفاق[35]، ويحضّر "خالد" نفسه لملاقاة الوطن على أصابع الجرح. وكل هذا يجعل الوطَن اللاوطَن، ويحّل اللامكان محلَّ المكان:

"ها أنذا.. بحقيبة يد صغيرة، هنا في اللامكان"[36].

وعندما يقف "خالد" متسائلاً أمام الوطن، نتأكّد أنّ هذا الوطن خرج من كونه وطنًا له، وتحّول إلى اللاوطن.

"هوذا الوطن الآخر أخيرًا أمامي.. أهذا هو الوطن حقًّا؟"[37].

وسبب كّل تلك النقمة على الوطن، أنّه أبعده عن حبيبته، وإذا كان العكس، لبقي الوطن وطنًا ولم يولد اللاوطن في داخل الشخصية:

"لو كنتِ لي.. لباركَتنا هذه المدينة، ولخرج من كّل شارع عبرناه وليٌّ يحرق البخّور على طريقنا.. ولكن ما أحزن الليلة.. قسنطينة!"[38].

إنّ شخصيّة البطل في الرواية منسوجة بطريقة مرتبطة بالوطن ارتباطًا كبيراً، كجسر معلّق من جسور الوطن:

"خالد.. لماذا تحيط نفسك بكّل هذه الجسور؟

-أنا لا أحيط نفسي بها.. أنا أحملها داخلي. هناك أناس ولدوا هكذا على جسر معلّق"[39].

وبسبب ميل "خالد"إلى رسم الجسور يُخيّل للقارىء منذ البداية أنّه يحبّ جسور الوطن، إلاّ أنّه يكشف في النهاية أنّ حبّه لها يتحّول إلى كره، ويصبح لا يحبّ الجسور، بل يكرهها كراهيّته لكّل شيء طرفان، ووجهتان، واحتمالان، وضدّان. ولهذا السبب يتخلّى عن كّل لوحاته عن الجسور[40].

2- المدينة أو المدن

تأخذ المدينة حيّزا بارزًا في كتابات الكتّاب والشعراء المعاصرين العرب، إذ إنّ كتاباتهم تتأثّر بالمدن وما يجري فيها من الأحداث السياسيّة والاجتماعية والاقتصاديّة والفكريّة، وتبرز هذه الكتابات في مواقفهم في قالب أدبّي مبدع. " والتطّور الاجتماعي يؤثّر على تطّور الأدب بطريقة مباشرة في مضمونه أي فيما يتناوله من قضايا تكون محور العمل الفنّي سواء كانت تطّورات اجتماعيّة مثل قضايا الإصلاح الاجتماعي أو ما يجّد من تغّيرات حضاريّة يكون لها تأثير في الحياة الخاصّة والعامّة"[41].

إنّ المدن مليئة بالتفاعلات والتناقضات، حيث أنّها من جهة مركز للتفاعل بين سكّانها وأفكارهم، ومن جهة أخرى مكان للصراعات بسبب وجود التناقضات الموجودة بين الطبقات المختلفة اجتماعيًّا واقتصاديًّا وفكريًّ والهذه الأسباب تبقى المدينةُ عنصًرا بارزًا في كل ّ ما يُكتب عن الناس الساكنين في المدن، وتسيطر على تفاصيل السرد في الروايات أيضًا.

كما يقول أحد الكتّاب، إنّ "المدينة مكان أساس في تجربة الإنسان، وعنصر تكويني شمولي، تجسد رؤية الشاعر فنيًّا وتاريخيًّا، إلى ذاته الكلّيّة في العالم، ويحيل بما يكتنزه من أبعاد نفسيّة واجتماعيّة وثقافيّة وأيدئولوجيّة على مختلف الأمكنة والقضايا الأخرى[42].

من هذا المنطلق نرى للمدينة مكانة بارزة في رواية "ذاكرة الجسد"، إلاّ أنّ ما يلفت نظرنا هو أنّه لا يوجد فرق كبير بين المدن في نظرة الكاتبة، وأحيانًا تتّحد المدن في كّل ما تحتوي من الصراعات والتناقضات. لهذا السبب، قسنطينة بالنسبة إلى مستغانمي هي عبارة عن كّل مدينة عربية، حين تقول:

" فكّل مدينة عربيّة اسمها قسنطينة. وكّل عربّي ترك خلفه كلّ شيء وذهب ليموت من أجل قضيّة، كان يمكن أن يكون اسمه الطاهر"[43].

أو عندما تشرح مدى نفور البطل من مدينته التي جلبته إليها من مهجره، ليس ليُبعده عن حبيبته فحسب، بل لتجعله يشهد عرس حبيبته من رجل آخر، يقول:

"... ليس في هذا العالم المسكون بالأضداد من مدن بريئة ومدن فاجرة.

هناك مدن منافقة.. وأخرى أقّل نفاقًا فقط..

وليس هناك من مدن بوجه واحد.. وحرفة واحدة. وقسنطينة أكثر المدن وجوهًا.. وتناقضًا"[44].

3- المدينة- المرأة

تأخذ المرأة مفهوم الوطن والمدينة في رواية "ذاكرة الجسد" إذ إنّنا كثيرًا ما نرى أنّ الكاتبة تقيم علاقة شبه بين المرأة والمدينة.

وهذا الأمر ليس بعيدًا عمّا يوجد في الأدب العربي الذي يشبّهون فيه المرأة بالمدينة، بسبب ما يرمزان إليه من السكون مقابل اللا سكون، ويُقال "تزّوج امرأة وسكن إليها"، ولأنّ المدينة هي رمز الحضور والسكون، بعكس اللااستقرار الكامن في السفر خارج المدن.

إنّ المرأة المحبيبة تتحوّل شيئًا فشيئًا ليكون معنى وجودها أشمل ممّا كان وتصبح هي المدينة التي يحّن إليها الرجل. كما يقول "خالد":

"يا امرأة كساها حنيني جنونًا، وإذا بها تأخذ تدريجيًّا، ملامح مدينة وتضاريس وطن"[45].

ثمّ يصل حبّه إلى تلك المرأة إلى درجة حبّها إلى مدينته، ولا يبقى فرقًا بينهما. يتذكّر "خالد" فراش طفولته، والبطانيّة الصوفيّة التي كانت غطائه في مواسم البرد القسنطيني، ويخاطب مدينته كما وكأنّه يخاطب حبيبته، ويقول:

"كدت أصرخ في ليل غربتي.. دثّريني قسنطينة.. دثّريني..". وتذكر ما حدث مع النّبي محّمد بعد نزول جبرائيل عليه، وعاد النّبي إلى زوجته وجسده يرتعد من هول ما سمع. وصاح "دثّريني.. دثّريني.."[46]. دثّريني يا سيّدة الدفء والبرد معًا"[47].

ثمّ يتّجه "خالد" نحو لوحته الصغيرة "حنين" يتفقّدها وكأنّه يتفقّد حبيبته، ويخاطبهما:

"صباح الخير قسنطينة.. كيف أنتِ يا جسري المعلّق.. يا حزني المعلّق منذ ربع قرن؟"[48].

واللافت أنّ الرجل يعترف بأنّه هو الذي حّول مفهوم المرأة من مجّرد أنثى إلى مدينة:

"كم كنت أحمق.. كنت دون أن أدري، أوقظ داخلي مارًدا كان نائًما منذ سنين. وكنت أحّولك في حمّى جنوني من فتاة إلى مدينة"[49].

كما يضيف: " وقّررت في سّري أن أحّولكِ إلى مدينة شاهقة.. شامخة، عريقة.. عميقة، لن يطالها الأقزام ولا القراصنة. حكمت عليكِ أن تكوني قسنطينة ما.. وكنت أحكم على نفسي بالجنون"[50].

والمرأة- الحبيبة هي ما تجمع كّل النساء في نفسها، بكّل تناقضهّن وفروقهّن، حيث لا يبقى فرق بينها وبين نساء العالم التي تختصر فيها:

"لم تكوني امرأة.. كنت مدينة.

مدينة بنساء متناقضات، مختلفات في أعمارهنّ وفي ملامحهنّ؛ في ثيابهنّ وفي عطرهنّ؛ في خجلهنّ وفي جرأتهنّ؛ نساء من قبل جيل أمي إلى أيّامك أنتِ. نساء كلّهنّ أنتِ... كنت أشهد تحوّلك التدريجي إلى مدينة تسكنني منذ الأزل. كنت أشهد تغيّرك المفاجيء، وأنت تأخذين يومًا بعد يوم ملامح قسنطينة، تلبسين تضاريسها، تسكنين كهوفها وذاكرتها ومغاراتها السّريّة،..."[51].

وهذه النظرة إلى المرأة مدينةً، مأخوذه من نظرة الكاتبة إلى الإنسان بشكل عامّ، حيث نرى أنّ "خالد"يشبّه أخاهبالمدينة التي يسكنها أيضًا. لذلك كلّ إنسان بغضّ النظر إن كان رجلاً أو امرأة، يتّحد مع مدينته ليكونا واحدًا وليس اثنان. كما تقول الكاتبة بلسان "خالد": "وهل كان حسّان غير تلك المدينة نفسها. غير حجارتها.. قرميدها.. وجسورها ومدارسها.. وأزقّتها وذاكرتها؟"[52].

النتيجة

درسنا في هذا البحث شعريّة الفضاء في رواية "ذاكرة الجسد" لأحلام مستغانمي، التي تتمتّع بشعريّة في جوانبها المتعدّدة، وتحديدًا قمنا بدراسة الشعريّة في الفضاء الروائي. تبيّن لنا أنّ الفضاء في رواية مستغانمي، يرتبط بالمكان من جهة، وبالشخصيّات من جهة أخرى. حيث أنّ الكاتبة تقصد من خلال إشارات الفضاء، إظهار نفسيّة الشخصيّات وفكرتهم نحو المكان والفضاء.

إنّ علاقة الفضاء الذي صنعته الكاتبة بالمكان، هي علاقة متحوّلة وفق التحوّل الذي يصاب الشخصيّة وأفكارها وأحاسيسها ومشاعرها. ومن هذا المنطلق يتحوّل مفهوم وطن مثلاً إلى اللاوطن، بسبب تحوّل مشاعر الشخصيّة نحو وطنه.

كما أنّ فضاء المدينة الذي يملأ صفحات الرواية، يتحوّل مفهومه بتحوّل أحاسيس البطل لتصبح المدينة هي المرأة، والمرأة هي المدينة. إضافة إلى ذلك، ترى الكاتبة وحدة في مفهوم المدن، ولذلك لا فرق بين المدن، وكّل مدينة عربيّة يمكنها أن تكون قسنطينة.

الهوامش:

1- ماري إلياس، المعجم المسرحي، ص 337- 338.
2- المنجد في اللغة والأعلام، ص 771
3- ماري إلياس، المعجم المسرحي، ص 473.
4- حميد لحمداني، بنية النصّ السردي، ص 62.
5خالد بن مسفر المالكي، شعريّة اللغة الروائيّة، ص 685
6عبدالملك مرتاض، في نظريّة الرواية، ص 249.
7- جيرار جينيت، حدود السرد، ص 76.
8- كمال نشأت، في النقد القصصي، ص 3 و 4.
9خالد بن مسفر المالكي، شعريّة اللغة الروائيّة، ص 70.
10- أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، ص 344.
11نجيل بطرس سمعان، دراسات في الرواية الانجليزيّة، ص 101.
12- أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، ص 331.
13أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، ص 315.
14- أحلام مستغانمي، م.ن.، ص 25.
15 عبداللطيف محفوظ، صيغ التمظهر الروائي، ص 179.
16- أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، ص 48.
17- أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، ص 62.
18- أحلام مستغانمي، م.ن.، ص 63.
19- أحلام مستغانمي، م.ن.، ص284.
20- أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، ص 51.
21- أحلام مستغانمي، م.ن.، ص 63.
22- أحلام مستغانمي، م.ن.، ص 73.
23- أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، ص 85.
24- أحلام مستغانمي، م.ن.، ص 12.
25-أحلام مستغانمي، م.ن.، ص 22.

26- أحلام مستغانمي، م.ن.، ص 23.
27- أحلام مستغانمي، م.ن.، ص 27.
28- أحلام مستغانمي، م.ن.، ص 133.
29- أحلام مستغانمي، م.ن.، ص 13.
30- احلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، ص 80- 81.
31- "كان حلمي أن تكون لي زوجة وأولاد، ولكن القدر أراد لي حياة أخرى، فإذا بي أب لأطفال آخرين وزوج للغربة والفرشاة". أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، ص 106.
32- أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، ص 65.
33 احلام مستغانمي، م.ن.، ص 134.
34 راجع: أحلام مستغانمي، م.ن.، ص 142.
35- أحلام مستغانمي، م.ن.، ص 283.
36- أحلام مستغانمي، م.ن.، ص 356.
أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، ص37360-
38- أحلام مستغانمي، م.ن.، ص 401.
39- أحلام مستغانمي، م.ن.، ص 402.
40- يوسف الشاروني، القصّة تطوّرا وتمرّدا، ص 77.
41- إبراهيم رماني، المدينة في الشعر العربي المعاصر، ص
42- أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، ص 154
43- أحلام مستغانمي، م.ن.، ص 43315
44أحلام مستغانمي، م.ن.، ص 13.
45- أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، ص 62.
46- أحلام مستغانمي، م.ن.، ص 285.
47- أحلام مستغانمي، م.ن.، ص 79.
48 -أحلام مستغانمي، م.ن.، ص 119.
49- أحلام مستغانمي، م.ن.، ص 119.
50- أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، ص 141.
أحلام مستغانمي، م.ن.، ص 51.285-

المصادر والمراجع

- إلياس، ماري، قصّاب حسن، حنان، المعجم المسرحي، الطبعة الثانية، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، 2006.

بطرس سمعان، انجيل، دراسات في الرواية الانجليزيّة، القاهرة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 2007.

- جينيت، جيرار، حدود السرد، ترجمة بنعيسي بوحمالة، ضمن كتاب طرائق تحليل السرد الأدبي، منشورات اتّحاد كتّاب المغرب، 1992.

- رماني، إبراهيم، المدينة في الشعر العربي المعاصر، الجزائر نموذجًا 1925- 1962، القاهرة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1997.

- الشاروني، يوسف، القصّة تطوّرا وتمرّدا، القاهرة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 2010.

- لحمداني، حميد، بنية النصّ السرديّ من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، 1993.

المالكي، خالد بن مسفر، شعريّة اللغة الروائيّة، أحلام مستغانمي نموذجًا، المملكة العربيّة السعوديّة، دار مدارك للنشر، 2012.

- محفوظ، عبداللطيف، صيغ التمظهر الروائي، بحث في دلالة الأشكال، الطبعة الخامسة، دمشق، الناشر للدراسات والنشر والتوزيع، 2014.

مرتاض، عبد الملك، في نظريّة الرواية، الكويت، عالم المعرفة، عدد 240، 1998 م.

- المنجد في اللغة والأعلام، الطبعة 37، بيروت، دار المشرق، 1998.

-نشأت، كمال، في النقد القصصي، القاهرة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 2007.